قال حكيم العرب

دع الرأي يذهب حتى يختمر وإياكم

والرأي الفطير

محاضرة

في

العقل وكيف يتكون

ألقاها

حضرة أحمد بك فريحي العمروسي

مفتش بوزارة المعارف العمومية

على ملأ من كبار رجال العلم والمعلمين بدار نقابتهم في

٦ مارس سنة ١٩٢٢

طبع بمطبعة السعادة

الى

حضرة صاحب السعادة حافظ حسن باشا محافظ العاصمة

صديقي الفضال

اليك أهديت كلمتي السابقتين فحظيتا منك بشرف القبول

واليك أهدي كلمتي الثالثة « العقل وكيف يتكون »

فان كان حظها لديك حظ سابقتيها فذلك ما آمله عندك

وأتوسمه فيك واذا انضم الى ذلك أنها تُدِلُّ بموضوعها على أختيها

لما ورد في الحديث الشريف « ان الله لم يخلق خلقا هو أكرم عليه من

العقل » كان الامل في قبولها أقوي والرجاء بحظوتها أعظم والسلام ؟

أحمد فريد المصري

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الاخوان الاعزاء

لقد تكلمت فى محاضرتى السابقة عن منطقة نفوذ كل من العلم والاخلاق واختصاص العلم بقوة واحدة من قوى النفس وهى القوة المفكرة والاخلاق بالقوتين الأخريين وأعنى بهما قوتى الارادة والشعور .

ولكننا مع هذا التخصيص بينا أن تلك القوى تعمل على قاعدة حسن التفاهم والتضامن لصلاح المجموع وهو النفس المدبرة وشرحنا على قدر ماوصلت اليه جهودنا ومعلوماتنا ما للعلم من التأثير فى إصلاح النفوس وتهذيب الاخلاق لذلك لاتألو الأمم المتحضرة قديمها وحديثها جهداً فى سبيل توسيع نطاق التعليم كل يوم ونشره بين جميع الطبقات

أما اليوم فانى أتشرف بأن ألقى على حضراتكم معلومات إجمالية عن العقل وكيفية تكوينه لنستنبط منها ما قد يعود على التربية بالفائدة وبالأثر النافع فى التعليم

وفي اعتقادى أنه موضوع جدير باهتمام العقلاء والمربين خاصة لان الواجب على كل من يتصدى لتربية النشء وتثقيف عقولهم بالعلوم والمعارف أن يلم بأهم النظريات الفزيولوجية (علم وظائف الاعضاء) والمشاهدات النفسية الفلسفية يستوى فى ذلك المربى والوالد اذا أراد كلاهما أن يبنى العقول على أساس صحيح ويقومها على قواعد النظام والترتيب ذلك لان النفس فى حالتها الراهنة أعنى فى حالة ملابستها الجسم واتصالها به لا يمكنها أن تفكر بدون المخ وهو الاداة الوحيدة التى تستخدمها للقيام بأعمالها المتنوعة كما أنه لا يمكنها أن ترى الدنيا الخارجية بدون العين ولا أن تسمع حركتها بدون الاذن

ولقد دلت المشاهدات العامية والأعمال التشريحية على أن كل فساد يطرأ على قوة من القوى العقلية يكون منشؤه فساداً في بعض الخلايا المخية لذلك وجب علينا أن نبدأ القول بكلمة موجزة عن المجموع العصبي المركب من المخ والمخيخ والنخاع المستطيل الماثلة لتجويف الجمجمة ثم يليها النخاع الشوكى المسترسل فى القناة الظهرية الى القطن فالمجموع العقدى (أو العظيم السمپاتوى) فالاعصاب التى تربط تلك المراكز العصبية بجميع أجزاء الجسم

وهي خيوط دقيقة جداً لدرجة أن كل عشرة آلاف منها لا يزيد سمكها عن ملليمتر واحد وهي كما ترى فى شكل (٣) منبثة فى عامة أجزاء الجسم لتبلّغ ما يقع من الحوادث الى المخ وتنقل ما يصدر منه من الأوامر الى محال الوقائع

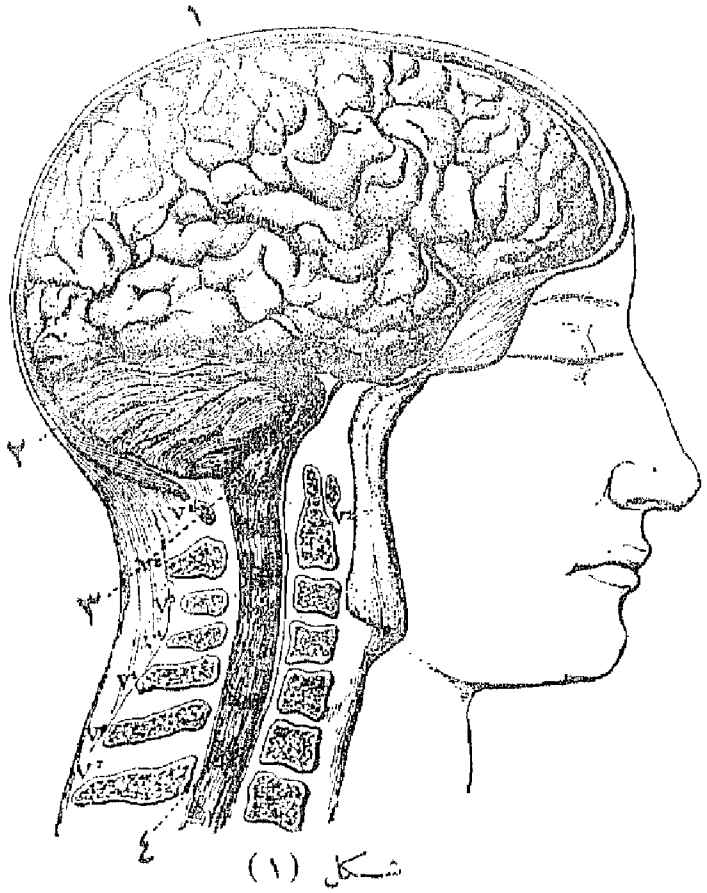

شكل (١)

(١) المخ — يتكون من طبقة سنجابية ذات تموّج وتمرّج . هي مستقر الفكر والارادة ولكل جهة منها عمل خاص من الاعمال العقلية المختلفة .

فمثلا رأى العالم بروكا سنة ١٨٦١ شخصاً فقد النطق أثر نوبة شللية ولكنه كان يفهم ما يلقى عليه من الاسئلة ويجيب عنها تحريريا فلما مات المريض فحص مخه فوجد بالتلفيف الثالث الجبهي خدشا فاستنتج بعد مشاهدات كثيرة أنه مركز النطق أي مركز الذاكرة المحركة للالفاظ الشفوية وسمي ذلك الموضع بتلفيف بروكا

والمخ مركز الافعال المنعكسة الارادية التي سنشرحها بعد

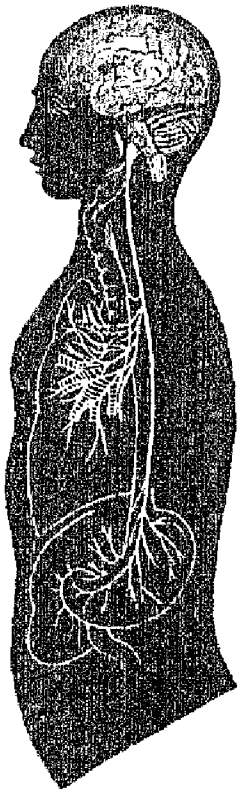
شكل (٢) العصب الرئوي المعدي
Nerf pneumo-gastrique

(٢) النخيخ — لا يزال حتى اليوم مجهول الآثار . اذ لم يعرف منها سوى تنظيمه لحركات الجسم . بدليل انه اذا استؤصل من الدماغ اختلت الحركات أو عدمت مع بقاء الفكر غير منقوص

(٣) النخاع المستطيل — كتلة عصبية صغيرة أسفل المخيخ ذات اهمية عظمى فى الحياة . اذ بها نقطة (اسماها فلورنس عقدة الحياة) هى منشأ العصب الرئوى المعدى المبين بالشكل يمينه وهو المنظم لحركات الرئتين والقلب واذا قطعت أو جرحت فقد الجسم الروح من فوره لانقطاع التنفس

وبجانب عقدة الحياة نقطة اذا خدشت اختل افراز السكر من الكبد واصيب الشخص بالبول السكرى وهكذا ....

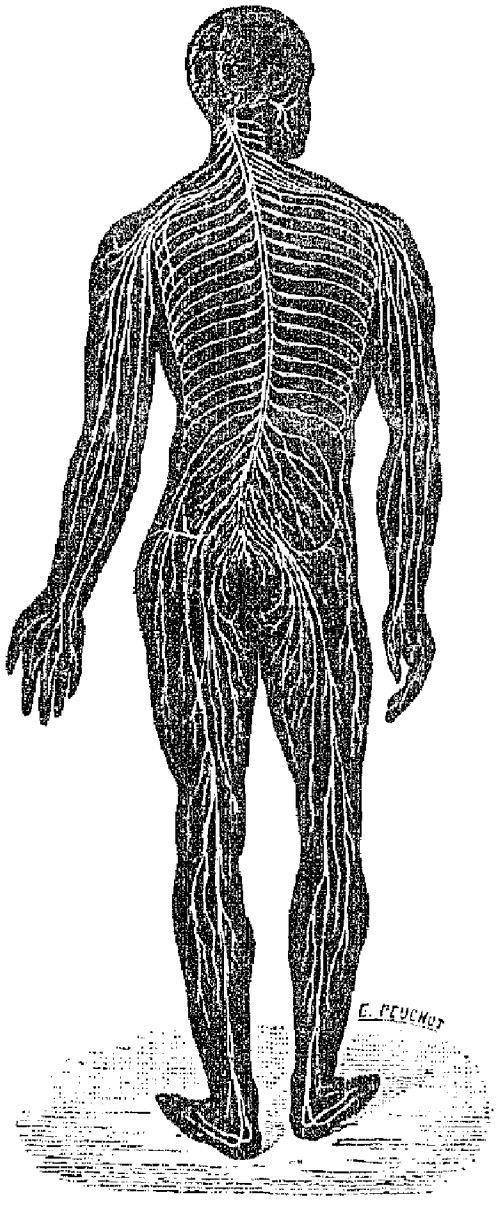

شكل (٣)

(٤) النخاع الشوكى — ينزل فى القناة الظهرية الى القطن . وهو مركز الأفعال المنعكسة غير الارادية

فلو وُخز أى عضو من جسم نائم انسحب فى الحال من موضعه بدون أثر المخ فيه . بل بأمر النخاع الشوكى الذى وصل اليه الأثر فأوحى بالحركة . ولذا تكون تلك الحركة مضطربة على غير هدى . فقد يصطدم العضو بما يؤذيه اثناء انسحابه — أما فى حالة اليقظة فان النخاع الشوكى ينقل الى المخ المؤثرات الخارجية ويوصل الأوامر الصادرة منه الى الجهات المتأثرة .

فالمخ هو الذى يدير دولاب وظائف المخالطة أى الحياة الحيوانية من احساس وحركة كما أنه يشرف على وظائف التغذية أى الحياة النباتية كالهضم والتنفس والدورة الدموية والافراز لانها وان كانت آلية لا دخل للارادة فيها الا أنها مرتبطة بالمخ بدليل ان الانفعالات النفسية القوية من شأنها أن تحدث اضطراباً فى دورة الدم والافراز وينشأ عن ذلك اصفرار الوجه والاغماء والسكتة المخية وذرف الدموع اضطراراً من العين وان إجهاد المخ فى المسائل العقلية لا سيما بعد الأكل مباشرة من شأنه أن يعوق عملية الهضم إن لم نقل أنه يوقفها

والذى يهمنا الليلة هو أعمال الحياة الحيوانية التى تتجلى فى الاحساس والحركة وتلك الافعال سواء أكانت بسيطة أم مركبة كلها أفعال منعكسة إرادية ولتقريب ذلك من الافهام نقول :

ان المؤثرات فى أى جهة من جهات الجسم ينتقل أثرها الى المخ بواسطة أعصاب تسمى أعصاب الحس وهناك يتحول هذا التأثير الى ادراك وعلم بواسطة الخلايا الحسية المخية التى بعد التمحيص والمداولة تصدر الامر الى الجهات المتأثرة من الجسم بواسطة أعصاب أخرى يقال لها أعصاب الحركة

أمثلة توضح ذلك :

١ — اذا شككنا أى نقطة من عضلة اللسان بابرة مثلا فان التأثير ينتقل الى المخ فوراً بواسطة عصب الحس فتتداول الخلية الحسية المخية المرتبطة بهذا العصب فى أمر ذلك المؤثر الخارجى وتجيب

عنه باصدار أمرها بواسطة عصب الحركة الى عضلة اللسان بالانسحاب والانقباض تجنباً للخطر المحدق به

٢ — اذا وضعنا قطعة من السكر على اللسان فان الخلايا الحسية تصدر بعد التمحيص أمرها الى الغدد اللعابية فتفرز مايكفى من اللعاب لاذابة السكر وابتلاعه لانه ملائم للبنية بخلاف المسألة الاولى

٣ — الوردة فى الحديقة تعبق منها رائحة ذكية فيصدر المخ الامر الى الجذع والاطراف بالانحناء وقطف الوردة لملاءمتها للجسم

وعلى هذا فالمخ والاعصاب يمكن تشبيهها بوزارة الداخلية للمملكة الجسمية فكما أن وزارة الداخلية مرتبطة مع جميع المدن بواسطة البرق والمسرة (التلغراف والتليفون) حتى اذا وصل اليها خبر حادث من الحوادث اجتمع الوزير بمن يشاركه فى الامر وفحصوا الاخبار الواردة ثم أصدروا أمرهم بمايجب اتباعه فكذلك المخ يعمل على هذا النمط كما أوضحته لحضراتكم

وانما سُميت تلك الافعال المخية بالمنعكسة لانها تنعكس في المخ على مثال انعكاس الصوت اذا قابل حائطاً أو جبلا (الصدى)

ولنذكر الآن تجربة بسيطة لتمييز أعصاب الحس من أعصاب الحركة :

يقطع العصب البصرى (وهو عصب حسى لانه ينقل الضوء الى المخ فيبصر) خلف مقلة العين ثم يؤثر فيه بمؤثر كهربائى أو ميكانيكى فى الطرف المتصل بالمخ فيحدث فيه ضوءا أما اذا أثر فى الطرف

المتصل بالعين فانه لا يحدث فيها أقل ضوء وبالعكس اذا قطع عصب الحركة بين العين والمخ وأثر في النهاية المتصلة بالعين فانها تتحرك أما اذا أثر فى النهاية المتصلة بالمخ فانه لا يحدث شئ مطلقاً

ويمكن اجراء التجربة بعينها على العصب السمعى أو الذوقى أو أى عصب آخر

ونتيجة هـذه التجارب أن العين لا تبصر بنفسها ولكنها آلة الابصار للمخ وان الاذن لا تسمع بنفسها ولكن المخ يسمع بواسطتها وأنه هو الذى يحس ما يقع على الجسم من المهيجات المختلفة كالوخز والجرح والحرق وهكذا وان خيل الينا اننا نشعر بآلامها محل حدوثها أي فى نهايات الأعصاب التى تنقل تلك المؤثرات الى المخ ومن هنا جاء اغترار المبتورة أطرافهم الذين يشعرون أحياناً بالام شديدة فى أصابعهم وقد فصلت عنهم من زمن ليس بالقصير

هذا وان العجب ليأخذ منا مأخذه اذا فكرنا فى كيفية تحويل التأثيرات الخارجيـة الى علم وادراك بمجرد وصولها الى تلك العجينة المخيـة التى لا يخرج تركيبها الكيميائى عن الماء والزلال والدهن والفصفور وما شاكل ذلك

حالة من أحوال النفس العجيبة وموقف من مواقف الغيب التى استأثر الله تعالى بها فليس للانسان الا أن يقف أمامها وقفة اجلال واكبار ويطأطئ الرأس خشـية واحتراماً لان العلم بحقيقة ذلك قـد انفرد به الله جل وعلا والله لا يظهر على غيبه أحداً وسيظل أمر النفس

سراً دفيناً وأمراً مكتوماً مهما جد الباحثون واجتهد المنقبون لانك اذا وضعت بين يدى أكبر عالم مدقق منقطع لهذا البحث جمجمتين لعالم وجاهل فانه لا يتأتى له بحال أن يفرق بينهما ويقرأ ما كمن فيهما

من هذا يا حضرات السادة ندرك قول الله عز وجل:

« ويسألونكَ عن الرُّوح قُل الروح من أمر ربّي وما أُوتيتم مُن العلم الا قليلا »

على أن الانسان لا يزال يجهل حقائق القوى الطبيعية التى يسخرها في أغراضه ويتمتع بآثارها فى غدوه ورواحه من الضوء والحرارة والمغناطيس والكهرباء فكيف به اذا حاول كشف ما وراء الطبيعة وكله أسرار لا قبل للانسان بادراك كنهها واني بهذه المناسبة أقص على مسامع حضراتكم الواقعة الآتية :

وقع فى يدى أيام كنت طالب علم ببارين كتيب فى الكهرباء من تلك الكتب المعروضة للبيع على ضفتى نهر السين فرأيت فى أول صحيفة منه تلك الحكاية الظريفة التى أفادتنى كثيراً مدة اشتغالى بمهنة التدريس وحاصلها أن سيدة من كبريات السيدات سألت العالم الرياضى الكبير (جوزف برتران) فى محفل ضم عظماء الرجال وفطاحل العلماء هل القمر مسكون ؟ فقال لا أدرى فرجعت اليه بعد برهة وسألته أفى الامكان عمل منظار مكبر يقرب القمر الى متر من الرائى كما قرأنا فى بعض المجلات أخيراً ؟ فأجاب العالم لا أدرى فاغتاظت السيدة وقالت إذن قل لى مافائدة علمك الكبير وفضلك الجم فقال لها فائدة ذلك يا سيدتى أنى

أقول لا أدرى حيثما لا أدرى

ثم قال المؤلف بعد ذلك ان كثيراً من العلماء يعرّفون الكهرباء ولكنى لا أحذو حذوهم لان حقيقتها مجهولة لا علم لاحد بها وكل ما نعرفه عنها هى آثارها التى نستخدمها فى أغراضنا المتنوعة

فلا يخجلن أحد اذا سئل عن أمر لا يعرفه أن يقول لا أدرى فالعلم بحر لا ساحل له وفوق كل ذى علم عليم

وهذا يقرب مما روي عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقد ورد أنه سأل رجلا عن أمر فقال له ـ الله أعلم ـ فغضب عمر وقال شقينا ان كنا لا نعلم أن الله أعلم اذا سئل أحدكم عن أمر لا يعلمه فليقل لا أدرى

الكلمة الثانية

فى كيفية تكون العقل

يقول بعض الفلاسفة ان الانسان لا يفكر باختياره وارادته وأنه ليس فى وسعه ابراز فكرة واحدة من تلقاء نفسه أو من صميم فؤاده ولو بلغ الغاية من النبوغ والعبقرية لأن نفس الطفل عندولادته قلّ أن يوجد فيها سوى بعض الغرائز والشهوات والدواعى المادية وأما الفكر فليس بفطرى فيها بل ينبت تدريجاً ويكتسب بالتجربة من مخالطة الدنيا الخارجية وانفعال النفس بمؤثراتها الحسية والمعنوية التى لا تزال تتسرب اليها بلا انقطاع من طريق الحواس فينطبع أثرها فيها كما ترتسم صور المرئيات بمرورها أمام الآلة المصورة وتتولد الافكار فى النفس متتابعة تتابع الحوادث التى أوجدتها متنادية كل فكرة فيها تدعو أختها اليها بما بينهما من المناسبة والميل فتتصل بها وتكون خلقة جديدة فى سلسلة أفكارنا ومعلوماتنا ثم تتصادم بالاحتكاك والمخالطة مع الافكار القديمة المخزونة فى النفس فتحركها من سكونها وتثيرها من مكمنها وتبعثها من مرقدها وقال الشاعر العربي فى هذا المعنى

اذا طال عمر المرء فى غير آفة أفادت له الأيام في كرها عقلا(١)

---

(١) لا أجد شيئاً أشبه بالمعانى يدعو بعضها بعضاً الى الذهن فتقيم فيه مؤتنسة متعارفة من شخص يلج مجتمعاً يعرف فيه ولو فرداً واحدا فانه لا يلبث أن يجعله سلماً للتعارف بالباقين

وعلى ذلك لا تكون أفكارنا ملكا خالصاً لنا نحكم فيها ونتصرف في أمرها بل هي بنات الظروف والحوادث ونتاج الطوارئ الخارجية تتجه معها وتسير في مجراها دون أن يكون للانسان منها سوى العلم بها والاذعان لقبولها كما هي من غير تغيير ولا تبديل كما قبل أبويه ودينه من قبل

أما اذا لم يصادف من يعرفه فانه يستمر قلقاً يمكث ما يمكث وكأنه في عزلة ثم لا يلبث أن يخرج شأن المعنى الغريب في سرعة الزوال من النفس

وما مثل الفكر المرتب الذي تتفلغل فيه المعاني متآلفة متناسبة الا كمثل أحجار (الدمينو) ترص بنظام ينتهي بأقفال الدائرة محكمة

أما ذلكم الذي يشحن ذهنه بأنواع من المعلومات مفككة متنافرة فلا يمكن الا أن يكون مضطرب الفكر مهوش الذهن ينتقل من موضوع الى آخر دون أن يكون بينهما أقل مناسبة

كان طرفة بن العبد عند بعض الملوك والمسيب بن علس ينشده شعرا في وصف جمل ثم حوله الى وصف ناقة فقال طرفة

« استنوق الجمل »

فذهب مثلا يضرب للرجل يكون في حديث أو صفة شيء ثم يخلطه بغيره وينتقل اليه

لذلك يجب على المربين أن يعنوا باتخاذ ما عند الاطفال من المعلومات المنزلية أساساً يبنون عليه المعلومات التي يريدون تدريسها لهم إذا كانوا حديثي عهد بالتعليم ويخلق المناسبة والارتباط بين موضوع الدرس القديم والدرس الجديد حتى تكون المعلومات في أذهانهم كحلقات السلسلة الواحدة ليربط بعضها بعضا

وليس منا من يجهل ما لتحول الاحوال وتقلب صروف الدهر وحوادثه من التحكم فى أفكارنا والتسلط على مشاعرنا وأفعالنا فكم من أمر يبرمه الانسان بعد الروية وتقليب النظر واعمال الفكر ثم لا يلبث أن يعرض له خاطر أو يأتيه خطاب من صديق مثلا فيندم من فوره ويود لو كان قد سبق الى نفسه ذلك الخاطر أو علم من قبل بما فى ذلك الخطاب حتى كان يتوقف عن امضائه ولا يتعجل فى تنفيذه وكانت الامور تأخذ طريقاً آخر غير الذى صارت فيه

فقبل أن يسنح ذلك الخاطر أو يصل ذلك الخطاب سارت حركة تنادى المعانى فى اتجاه خاص فأوصلت الى نتيجة خاصة وبعد ذلك عرضت حالة جديدة غيرت وجهة تداعي المعانى تغييراً كان من شأنه أن يؤدى حتما الى نتيجة أخرى فالانسان فى تصرفاته لا محالة خاضع للبيئة الحالية المحيطة به من كل مكان

ذكرت الجرائد الفرنسية منذ مدة نبأ انتحار موظف كبير وجهت اليه بعض التهم وبينما هو يحتضر انتهى اليه أن المخاوف التى أسلمته الى اليأس قد بددت وزالت وتبين أنه برىء فتمتم قائلا trop tard سبق السيف العذل ثم قضى نحبه بعد دقائق

ولكن ليس معنى ذلك أن يستسلم الانسان للحوادث ويلقى اليها زمام نفسه وينقاد لها انقياد العاجز الذى لا حول له ولا قوة فان العقل ينمو بكثرة المراس والاستعمال والمزاولة كالذى يحصل لذوى الأسنان والشيوخ من الحنكة وصواب الرأى وكثرة التجربة ومعالجة

الامور بما أفادتهم اياه السنون وعلمتهم الحوادث ثم هو يزداد نماء وقوة بالتعليم وحسن التربية وصلاح البيئة فاذا قيض للانسان معاشرة الاخيار من الناس وتلقى العلوم من أفواه الافاضل من الاساتذة والمربين فانه بلا شك لا يلبث أن يتغلغل فى ذهنه طائفة كبيرة من الافكار الناضجة التى يصطفيها لنفسه مما جرب وتعلم فتصبح رأس ماله الذى يعتمد عليه في مقاومة الحوادث وسلاحه الذى يذود به عن نفسه فى معترك الافكار وتسمى هذه بالافكار المديرة Idées directrices

فاذا هجم على الانسان بعد السن اللائقة فكر جديد والفكر يحرك فى الصدر شهوة والشهوة تقضى بالانفاذ العاجل فماذا هو فاعل يا ترى ؟ ان الذى يقع هو أحد أمرين اثنين :

إما أن تجد الشهوة ساحة الضمير مجدبة فارغة من الموانع التي تكون عقبة فى طريقها فتنتهى طبعاً الى الغرض الذى تطلبه من غير دفاع ولا منازعة اذ لم يعترضها من الضمير مقاوم فتغالبه ، واما أن يتصدى لها فكر من تلك الافكار المديرة الراسخة فى النفس بالتجربة وطول الاختبار والتربية فتحاول وقفها عند حدها ومنعها من البلوغ الى غرضها وهنالك يتفاقم الخلاف بين الخصمين وينشب بينهما عراك هائل على مرأى منا وتحت نظرنا يكون النصر فيه لاشدهما رسوخا فى النفس وأقواهما امتلاكا لعنانها وقيادة لها

واليكم مثلا خياليا يبين ذلك ويجليه للفهم وينطبق على كثير من أمور هذه الحياة

مرّ ثلاثة نفر في يوم شديد الحر وقد أجهدهم العطش ونال منهم الظمأ فأتوا في طريقهم على كرم قد ينع ثمره ودنا جناه فراقهم حسن منظره فطوعت لهم أنفسهم أكل شيء منه وكان الاول منهم حسن التربية قد رسخت في نفسه فكرة احترام ملك الغير فصحت عزيمته من فوره على ألا ينال من هذه الفاكهة الا اذا وجد البستاني ونقده ثمنها أو يمضي في سبيله متحملا ألم العطش مفضلا داعي الحكمة على الشهوة

وكان الثاني أقل تهذيباً منه فاندفع بتربيته الى قطف عنقود من العنب ولكنه قبل أن يطعم منه حبة نظر فرأي صاحبه فآثر الرجوع الى رأي أخيه وعدل عن فكره ونسج على منواله مرجحاً كفة العقل بعد أن كانت مرجوحة ومضى في سبيله متحملا ألم العطش ملبياداعي الحكمة ونداء العقل

وأما الثالث فكان غلاماً حدثاً ليس عنده ما عند صاحبيه من وازع الحكمة فهز كتفيه استهزاء بأمانتهما ونزاهة ضميرهما وشرع يأكل عنقوده مطمئنا هادئاً غير مكترث بزاجر من عقل ولا وازع من حكمة اذ كان ميدان الضمير عنده خالياً مما يصده عن هذه الشهوة العمياء الضارية ولئن استمر مثل هذا الجاهل مسترسلا في عمايته ولم يجد من يرشده الى الخير ويكفه عن مراجعة الشر ليكونن في كبره شيطاناً مريدا ولصاً كبيراً

ترون من هذا أيها السادة أن شهوات النفس لا تقاوم الا بالافكار السليمة والعقائد المتمكنة التي رسخت في النفس بالتهذيب والتربية

والتعليم أكثر من رسوخ الشهوات فيها

فان كان بناء العقيدة واهياً وكانت تلك الافكار السليمة غير متمكنة من النفس تمام التمكن قوى سلطان الشهوات عليها فانحازت النفس الى جانبها

صاحب الشهوة عبد فاذا ملك الشهوة أضحى ملكا

عجيب ذلك المزيج المسمى إنسانا فان إنسانيته قائمة بالروح والبدن معاً وهما أكثر متعارفين تناكرا وأكبر متقابلين تدابرا فالروح وهى لطيفة شفافة الهية دائمة التحنان إلى الأفق الذى إنفصلت منه والبدن وهو معتم جُبلَ من التراب لا يفتأ يحن إلى طينته وينزع والحياة قائمة به إلى جبلّته تطلب الروح أن تسمو لانها سماوية وحب الوطن من الايمان ويعالج الجسم أن يهبط بها لأنه أرضىّ ولا يزال ذلك دأبه حتى تنحلّ الشركة المعقودة بينهما

هذا النضال القائم بينهما أما أن ينتهى بفوز الروح فتحتكم فى البدن « وأحبب بها في فوزها تتحكم » وحينئذ يكون الانسان صورة إنسانية للمَلَكْ وأما أن ينتهى بفوز البدن وهو فوز لا هزيمة شرّ منه وحينئذ يكون الانسان شيطانا مريدا

يقول أحد علمائنا الأقدمين : ركّب الله الملائكة من عقل بلا شهوة وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركّب ابن آدم من كليهما فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلبَ شهوته على عقله فهو شر من البهائم

فاذا كان من يقهرُ القوىّ بطلا فأبين بطولة منه من تغلب بجزئه الملكىّ على جزئه الشيطانى لذلك قال النبى صلىّ الله عليه وسلم عقب الفراغ من غزوة

رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر أى جهاد النفس

ولا يفوتنا بعد هذا أن نقول أن تلك الأفكار التى جعلناها رأس مالنا الأدبى الخلقى والتى هى دليلنا إلى الخير ومرشدنا إلى تمحيص ماتفاجئنا به الأيام والحوادث من الأفكار الجديدة ليست منا بل منشؤها الطوارىء الخارجية كما سبقت الأشارة إلى ذلك فهى خارجة عن إرادتنا خروج الحوادث النازلة عن قبضة يدنا هذا ومن جهة أخرى فان إيثارنا لتلك الأفكار المديرة وكوننا إصطفيناها لأنفسنا من كثير مما عرض علينا بميولنا الخاصة وغرائزنا الفطريه وإستعدادنا الوراثى هذا أيضاً لم يكن لأرادتنا دخل فيه ولم يوجد فينا باختيارنا فالأنسان فى الحقيقة واقع بين نيرين نير داخلى من الاستعدادات الفطرية والغرائز والشهوات ونير خارجى من الحوادث المفاجئة والأحوال الطارئة وهو فيما بينهما كالحديدة بين المطرقة والسندان

أفيقال بعد ذلك إن الانسان حر فى أفكاره وآرائه :

إن مثل الانسان فى ذلك مثل أمير أو ولى عهد يراد تزويجه فيؤتى إليه بعدة من الفتيات محدودة ثم يقال له أنت حر فاختر من أحببت منهن وفاتهم أنهم لم يعرضوا عليه إلا بعض الفتيات وأن الاختيار محصور فى دائرة معينة لا يتعداها ، يجىء بعد ذلك دور الاختيار فيختار

الامير إما بما توحيه إليه تربيته المكتسبة أو بما يقتضيه ذوقه الوراثى أو بتأثره بميل أبيه أو أمه ثم يقولون بعد ذلك إن الامير كان حراً فى اختياره لزوجته على أنه ما كان حراً إلا فى القول فحسب

يقول الفيلسوف سبينوزا (Spinoza) ان الناس يعتبرون أنفسهم أحراراً لانهم يرون أعمالهم ويصدرونها بأيديهم ولكنهم لا يفكرون في الاسباب التى دعت إليها واقتضت وقوعها لان تربية الانسان وبيئته وحاله النفسية أو المالية قد تضطره فى كثير من الاحيان إلى عمل يظن الناس انه حر فى ركوب متنه مع إنه مجبر على عمله بالعوامل المتقدمة

ويحسن بنا أيها السادة أن نضيف إلى رأى هذا الفريق من الفلاسفة القائلين بتكون الفكر من المحسوسات الخارجية بواسطة الحواس كما تبين من الشرح المتقدم رأياً آخر فهنالك طائفة كبيرة من العلماء تقول انها مع اعترافها بما للحواس من النصيب الاوفر فى تنمية الذكاء وترقية الفكر تعتقد أيضاً أن العقل عند ولادة الطفل ليس صحيفة بيضاء خالية من كل نقش ولا أرضا قاحلة مجردة من كل غرس بل هو آلة مجهزة بقوى ذاتية وميول وغرائز عقلية تدخل اليها المدركات المحسوسة فتدير حركتها وتدبر أمرها وإن كانت لا تخلقها وتلك الغرائز والميول هى للفكر بمنزلة الهيكل العظمى للجسم تربط أجزاءه وتجمع شتاته وتضم أوصاله وانى الى هذا الرأى أميل إذ يؤيده العقل والنظر فان المدركات المحسة اذا دخلت إلى النفس وتراكم بعضها فوق بعض دون أن تجد من يهذبها ويرتب أشكالها ويضع كل شيء منها مع مناسبة كانت أشبه

بأدوات البناء الملقاة بالفضاء لاشكل لها ولا نظام يجمعها

أما اذا وضع المهندس يده فيها فأنه يخرج منها الصروح والحصون والقصور والدور فالفكر كذلك هو المهندس القادر الذى يستقبل تلك المعلومات الداخلة فيرتبها ويهذبها ويخرج منها الاشكال المتنوعة والنماذج المخترعة البديعة

ومن تلك الغرائز المخلوقة فى عقل الطفل

(١) غريزة المحاكاة والتقليد التى هي أهم مايدفع الطفل فى حياته الاولى إلى كثير من أعماله

(٢) غريزة المباراة والمنافسة وحب الاستطلاع وهي لاتجعل الطفل يكتفى بمجرد النظر إلى الاشياء بل تدفعه إلى حب الاستكشاف والاكثار من السؤال عن كل شىء يعنيه أو لا يعنيه بل هي التى تدفعنا نحن إلى الاستزادة من العلم والرغبة فيه على الدوام وفى الحديث الشريف

« لايزال الرجل عالما ماطلب العلم فاذا ظن أنه علم فقد جهل »

فعلى كل أب وأم ومدرس أن يتعهد هذه الغريزة الكريمة ويحولها إلى وجهتها وينميها ويقويها في الطفل ماوجد الى ذلك سبيلا ، فيجيب عن أسئلته ويثيره إلى السؤال عند الضرورة

ومن رأى روسو الاجابة على أسئلة الطفل إذا كان يقصد بها حقيقة المنفعة والاستفادة

أما إذا سأل الطفل لمجرد السؤال أو التظاهر بالذكاء والادعاء

فالاولى اغفالها وعدم الاجابة عنها ولكن لا يحسن اغفال الاسئلة النافعة والاجابة عنها إجابة تناسب حالة الطفل

أما اذا ترك الطفل ولم يجب على أسئلته فقد تنطفىء بذلك شعلة تلك الغريزة الجميلة ويفتر ذلك الذكاء والنشاط الذى يريد الارتقاء والانبساط الى أن يخمد ويزول بذلك الاغفال

(٣) غريزة الحب ومن آثارها نفور الطفل من هذا وشدة تشبثه بذاك وايلافه درس الاستاذ الذى يحبه والمبالغة فى ارضائه والحظوة عنده وان هذا الميل الكريم في الطفل هو بلاشك أساس انتفاعه بعلم أستاذه وزيادة رغبته فيه ولذا قال الفيلسوف الفرنسى (ديدرو) عند ما عوتب فى شأن تلميذ له لم يستفد من دروسه : ماذا تريدون أن أعلمه وهو لا يحبنى

لذا قال مشليه الفرنسى فى تعريف التعليم : التعليم مودة ومحبة

وهكذا من تلك الميول الفطرية المشروحة شرحاً جميلا فى كتاب الغرائز تأليف صديق الاستاذ محمد حسنين الغمراوى بك

أيها السادة — ترون من هذا ومما سبقه ان كلا الفريقين لم ينكر تأثير البيئة فى الانسان ولا أثر التربية فيه وصقال الغرائز والميول التى فطر عليها بهذه المؤثرات الخارجية — فاذا كانت الدنيا الخارجية هكذا هى التى تمونا بالافكار وتمدنا بالمعلومات وجب علينا أن نكثر جهدنا من عرض صور الاشياء المختلفة على الطفل وتعريفه بأوصافها وخصائصها فان كثيراً ما يكون ضيق الفكر عند بعض الاشخاص ناشئاً من قلة

مشاهداته وما عرض عليه من المرئيات .

وهذا هو السبب في الفرق الذى يشاهد فى ابن المدينة اذا قيس بأمثاله من أبناء القُرى فهو أذكى منهم فؤاداً وأنبه نفساً وأكثر توقداً لكثرة ما مرّ على عينيه من الاشياء وما عرض لحواسه من المناظر التى أيقظت عقله وقوت فيه المراقبة والحكم على الاشياء من نعومة أظفاره

ولسنا نغلو في القول اذا شهدنا أن الانجليز أوفر الناس حظا من الانتفاع بهذه الدنيا الخارجية والاخذ عنها فان الناشئ منهم قد يكتفى من دروس المدرسة بما فيه بلاغ له ثم يصرف عنان عنايته الى تلك المدرسة العالمية العامة فيموّن نفسه بمعلوماتها وينمي معارفه بما يتلقاه عنها ويعد نفسه لان يكون له من الكون أفضل أستاذ ومن الطبيعة أنفع هاد فيجوب آفاق الآفاق قارئاً من صحيفة الوجود ما فيه عبرة ومن أساطير الكائنات ما فيه هدى وتبصرة أخذوا بذلك أنفسهم وأولع به متعلموهم لمعرفتهم أن هذا هو غذاء العقول ولقاح الافكار .

ولما كان الانسان أسير البيئة كما قدمنا وابن التربية التى صقل بها وجب على الانسان أن يخفف من وطأة انتقاده لغيره فقد «تلوم غير ملوم» «ولعل له عذراً وأنت تلوم » فعلى العاقل أن يتحرى الأسباب ويمحص الحوادث ويقف على أسرار الامور قبل انتقادها رحم الله من قال :

اللذب للأيام لا لى فاعتب على صرف الليالى

أما اذا انتقد الناس بعضهم بعضاً من غير روية وبلا تفكير كما

هو حاصل بين كثير من الأمم المتأخرة فلاريب أنهم يهدمون أنفسهم بأنفسهم حتى يتفانوا وتذهب ريحهم

ان النقد الصحيح المبنى على أسباب صحيحة والذى يرادبه تمحيص الحقائق والوصول اليها وبخاصة في المسائل العلمية والاجتماعية من أهم عوامل التقدم والارتقاء ولكن قليلا من الناس من يفرق بين نقد الافكار في ذاتها والتشهير بالاشخاص والنيل منهم .

هذه القوانين الوضعية التى تنص على عقاب المجرمين لا يشم منها مطلقاً رائحة الانتقام من اشخاصهم او التشنيع عليهم وذلك لانهم ارتكبوا ما ارتكبوا مدفوعين بتربيتهم الناقصة وغرائزهم الشريرة

وانما الغرض من العقاب اصلاح عوجهم وتقويم أودهم وتحذيرهم من العودة الى خطئهم والزجر لمن عساه أن تحدثه نفسه من الناس بالاقدام على مثل أعمالهم أو الوقوع فيما استحقوا العقوبة من أجله .

كلمة ختامية

في التفكير الخفي والرأي الدبري

وضح مما قدمناه أننا نفكر بروية فى جميع شئوننا لنبلغ أغراضنا المختلفة وندرك مقاصدنا المتنوعة . واننا نستعرض الطرق الموصلة اليها طريقا طريقا لنختار منها الطريق المُعَبَّد والمنهج القويم ثم نزاول العمل بارادتنا واختيارنا . غير أن للفكر حالة غريبة يحاول علم النفس الحديث أن يكشف عنها القناع ويميط عن وجهها اللثام . وهذه الحالة هي عمل الفكر بعيدا عن مراقبتنا وشعورنا عملا خفيا لا تقل نتائجه في القيمة عن عمله وهو تحت سلطان ارادتنا وعلى اتصال بشعورنا . وهذه الحالة سماها كاربنتر الانجليزى بالتفكير الخفى أو غير المحسوس L'inconscient وهي حالة النوم أو السبات الذى يعترى المخ في كثير من الاحيان فيصير كالذاهل الغافل الذى لا يهتم للحوادث ولا يأبه للمؤثرات الحسية الخارجية التى تتسرب الى نفسه

والعجب العاجب أن الفكر حتى فى غفوته وذهوله لا يترك العمل على الاطلاق بل يسبح سبحات سرية ويجول جولات خفية بعيدا عن شعورنا ومداركنا متنقلا فى ظلمات النفس وغياهب المعقولات ليجمع الروابط المتصلة والمقدمات المنتجة والنتائج الصحيحة حتى يصل الى حقائق معقولة ومعلومات جديدة لا ريب فيها ولا لبس في صدقها ثم يبد هنا بها على غير انتظار ويكشفها لنا من غير ترقب ويتحفنا بها

وليس بيننا وبينها موعد

فكأن للمخ أوقاتا ينبذ فيها سيطرة الشعور ورق الارادة ليتحرك في عالمه حرا مستقلا ليمحص الافكار وينقح الاسباب بريث ومهل ويأتينا بنتائج لا تختلف في شيء عن النتائج التي يصل اليها على علم منا واتصال بشعورنا ولا يمكن أحدا أن يشك في وجود هذه الحالة النفسية الخفية بدليل أننا نرى نتائجها ظاهرة محسوسة فيما يأتي :

(١) يحدث أن يعالج الانسان من اول الليل مسألة رياضية يحلها مثلا فيعجز عنها وينال منه التعب فينصرف وينام ثم يستيقظ حين يصبح فيرى حلها مرسوما واضحا أمام عينيه

(٢) كثيرا ما يعرض للانسان مشاكل ادارية ومعضلات معاشية فيحار في تصريفها ويعيا بأمرها وقد يستحوذ عليه اليأس ويدركه القنوط ثم يظهر له عفوا بعد وقت ما طريق حلها سهلا مسيرا

(٣) اننا كثيرا ما نبحث عن كلمة أثناء المحادثة فلا نجدها وبعد أن نتركها وشأنها ونشتغل بغيرها لا نلبث أن تمر بالمخيلة في وقت لم نرتقب مرورها فيه وذلك ما يسميه الفرنسيون بعقل آخر درجات السلم esprit du bas de l'escalier وهو عندنا الرأي الدبري وهو ما يعرض من الصواب بعد فوت الوقت وضياع الفرصة . واذا كان الامر كذلك فمن الكيس واصالة الرأي أن ننتفع بنتائج هذا النوع الخفي من التفكير بالتريث والنظام والاناة والصبر حتى ينكشف الغطاء ويظهر الصواب

فاذا عجزنا في موضوع ما بعد تفكير طويل عن الوصول الى

نتيجة وجب ألا نقنع بأن الوصول اليها صار قسيم المستحيلات فقد يتناول الفكر الخفي هذا الموضوع فيرتب ويمحص ويربط ويستنتج حتى يصل الى النتيجة المرغوبة ثم يفاجئنا بها فنبلغ ما رجوناه وندرك ما تمنياه ولكنا اذا جزمنا بأن ما وصلنا اليه هو كل ما يمكن أن ينتجه الفكر وامضينا العمل على هذه العقيدة ثم ظهر لنا وجه الصواب من بعد وقعنا فى ندم الرأى الدبرى وقانا الله شره وأعاذنا منه

قال الجاحظ فى البيان والتبيين «وكانوا يأمرون بالتبييت والتثبت وبالتحرز من زلل الكلام وزلل الرأى ومن الرأى الدبرى والرأى الدبرى هو الذى يعرض من الصواب بعد مضى الرأي وفوت استدراكه» الرأى الدبري يملأ القلوب حسرة والصدور ندما ولا يكون الا من وراء رأى لم يبيت ولم يختمر نعوذ بالله منه ومن عواقبه الوخيمة: يقول أحد حكماء العرب دع الرأي ينب حتى يختمر واياكم والرأى الفطير لعلكم تذكرون ندامة الكسعي على كسر قوسه فى قصته المشهورة ذلك لانه لم يبيت الرأى فعض أصبعه ندما حين ظهر له الصواب حتى قطعها وصارت ندامته مضربا للامثال حتى قال الفرزدق

ندمتُ ندامة الكسعى لما غدت منى مطلقةً نوار

لما انصرف مروان بن الحكم من مصر الى الشام استعمل عليها ابنه عبد العزيز وقال له حين ودعه:

اذا كنت في حاجة مرسلا فارسل حكيما ولا توصه

أى بنى انظر الى عمالك فان كان لهم حق غدوة فلا تؤخرهم الى عشية وان كان

لهم عشية فلا تؤخرهم الى غدوة واعطهم حقوقهم عند محلها تستوجب بذلك الطاعة منهم الى ان قال وان كان بك غضب على احد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند سورة الغضب واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب مُطفأ الجمرة فان أول من جعل السجن كان حكيما ذا أناة ولذا جرت العادة عند الامم المشهورة بالتروى وحصافة الرأى بقراءة المشروعات في المجالس النيابية المرة تلو المرة واحالتها من لجنة الى لجنة وتقليب الامور بين أيدى الكثيرين حتى يُتم اللاحق ما ترك السابق ويصل المتأخر الى ما لم يصل المتقدم فتخرج الامور ممحصة والمسائل مستوفاة من كل وجه

الرأى كالليل مسود جوانبه　　والليل لا ينجلى الا باصباح
فاضمم مصابيح آراء الرجال الى　　مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

ولقد شرع المربون يستفيدون من العقل الاختيارى فى جميع فروع التعليم خصوصا فيما يلى

(١) موضوعات الانشاء — يجب على المعلم أن يعطيها الطلبة قبل الكتابة عليها بأيام ويكلفهم بالتفكير فيها من آن لآخر ويسألهم عما وصلوا اليه ويناقشهم فيه وينبه أذهانهم الى عناصر جديدة فى الموضوع حتى اذا نضجت أفكارهم واختمرت آراؤهم أمرهم بالكتابة عليها

(٢) تحفيظ المحفوظات — لا ينبغى تحفيظها فى وقت واحد بل فى جملة أوقات فبعد شرح القطعة شرحا وافيا وعرض وجوه محاسنها ولفت الانظار الى حسن أسلوبها وجميل معانيها يقرؤها التلاميذ مرة ثم يتركونها

ويعاودون قراءتها بين آن وآخر حتى يكون للعقل مجال للاختمار وللرأى طريق الى الانضاج فيخرج المحفوظ ثابتا وطيدا آخذا من الفكر مجرى واضحا نيرا لا يعترض ما يحمله فلقا سريع الزوال

(٣) استعادة ما سبق اعطاؤه للتلاميذ من الدروس ومذاكرتهم اياه فليس ادعى الى استثارة الفكر والاهتداء الى مواطن الحقيقة من استعادة التفكير فى الشيء وتقليبه على وجوهه من آن لآخر

سئل العالم الانجليزي نيوتن المستكشف لقوانين الجاذبية العامة كيف وصلت الى استكشافها فقال « بالتفكير فيها دائما »

والمثل الفرنسي يقول « النبوغ صبر طويل »

Le génie est une longue patience

ولله در محمد بن بشير اذ يقول

ان الامور اذا سدت مطالبها ... فالصبر يفتق منها كل ما ارتتجا

لا تيأسن وان طالت مطالبة ... اذا استعنت بصبر ان ترى فرجا

اخلق بذي الصبر ان يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للابواب ان يلجا

هذا وسنلقى قريبا ان شاء الله تعالى كلمة رابعة في

عاطفة الجمال وأثرها فى التربية والتعليم